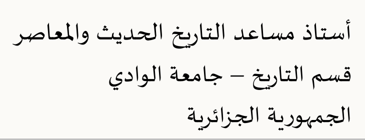
تجارة الرقيق وأثرَها على شعوب غرب القارة الإفريقية خلال القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين



عطية عبد الكامل

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

قسم التاريخ – جامعة الوادي

الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عطية عبد الكامل، تجارة الرقيق الأوربية وأثَّرها على شعوب غرب القارة الإفريقية خلال القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين.- دورية كان التاريخية.- العدد العشرون؛ يونيو ٢٠١٣. ص ٩٧ – ١٠٢.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يندرج هذا المقال ضمن المساهمة في كتابة تاريخ القارة الإفريقية التي عانت من الظلم والعدوان من قِبل مَنْ يدعون الحضارة. وقد شهدت القارة الإفريقية هذا العدوان عند بداية القرن الخامس عشر. فقد انطلقت الدول الأوربية الاستعمارية تجوب البحار والمحيطات للبحث عن المواد الأولية والسلع الرخيصة لتغطية احتياجاتها، وكان البشر من ضمن هذه السلع. في هذا الموضوع سنميط اللثام عن الممارسات اللاإنسانية التي كان يتعرض لها إخواننا الأفارقة، وانعكاساتها، ماضيًا وحاضرًا على شعوب وبلدان القارة الإفريقية.

مُقَدِّمَةْ

يعد موضوع الرق وتجارته في إفريقيا من أشد الموضوعات حساسية وأكثرها مدعاة لاختلاف الرأي في التاريخ الإفريقي، وعلى الرغم من أنه كتب عن تجارة الرق والرقيق الكثير إلا أن معظمهم ما كتب بحاجة إلى نظرة جديدة مع التسليم في الوقت نفسه بأن استخلاص الحقائق المجردة ووضعها في قالب موضوعي مهمة شاقة إن لم نقل متعسرة. بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الموضوع لايزال يثير حساسية خاصة لدى الإفريقيين ويزيد من تعقيد هذه الصورة أن بعض الإفريقيين استرقوا بعضهم بعض وأسهموا بالوساطة في تجارة الرقيق سواء كان ذلك للتاجر العربي أو الأوربي.(١)

تعتبر الفترة التي سادت فيها تجارة الرقيق(٢) من أسوء الفترات في تاريخ البشرية، إذ تمثلت فيها أبشع معاملة لإنسان نحو أخيه الإنسان الذي كرمه ربه وفضله على سائر المخلوقات. فكلما ذكرت تجارة الرقيق كلما تداعت أمامنا الصور البشعة للإنسانية التي أتخذها الإنسان كي يجعل منها تجارة مربحة، ضاربًا عرض الحائط كل القيم والأخلاق. فكيف يجوز لهؤلاء التجار الجشعين أن يحرموا الأطفال من أمهاتهم وآبائهم، وكيف يجوز لهم أن يسرقوا الأولاد كقطعان الماشية أمام أباءهم من الشيوخ الذين لاحول ولا قول لهم، فالإنسان في هذه العملية يسخر إلى جانب الحيوان فاقد الإنسانية.(٣)

وانطلاقًا من هذا المدخل سنحاول من خلال هذه الدراسة الإجابة عن التساؤلات الآتية: ما هي الدول الأوربية التي كانت رائدة في هذا النشاط التجاري؟ وما هي الدوافع الكامنة وراء ذلك؟ وكيف كان يتم التعامل مع الرقيق، أثناء شحنهم ونقلهم، إلى أوربا والعالم الجديد؟ وما هو موقف الكنسية الأوربية من هذه التجارة ؟ وكيف كانت انعكاساتها على شعوب غرب القارة الإفريقية ماضيًا وحاضرًا؟

تجارة الرقيق الأوربية وأثرَها على شعوب غرب القارة الإفريقية

لم تكن للأوربيين قديمًا علاقة بإفريقيا إلا عن طريق البحر الأبيض المتوسط، وكانوا يطمحون للاقتراب من مصادر السلع التي تستجلب من الشمال إفريقيا من بلاد السودان،(٤) كما كانوا يتطلعون إلى اكتشاف طريق أقصر للوصول إلى الهند. وبدافع

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحاجة هذه انطلق البحارة المستكشفون يمخرون المحيط الأطلسي، فاكتشفوا منذ القرن الخامس عشر الميلادي الأرض التي كانوا يجهلونها، وأقاموا لهم مراكز تجارية موسمية ثم قارة على سواحل موريتانيا وإفريقيا الغربية.(٥) وكان من أهم الدوافع التي خرج لها البرتغاليون من بلادهم هي الحصول على الذهب الذي يتواجد في غرب إفريقيا عند غينيا وساحل الذهب،(٦) وعندما اصطدموا بالإفريقيين قبل منتصف القرن الخامس عشر. استولوا على رقيق منهم حملوه إلى لشبونة واكتشفوا أن هذه تجارة مربحة فربطوا بين رحلاتهم الاستكشافية والحصول على الرق حتى وصلوا إلى الهند، وكانوا يسخرون هذا الرق في دفع مراكبهم الشراعية الضخمة، واستطاعوا أن يعودوا بأعداد كبيرة منهم إلى أوربا. وقد أقاموا على طول الساحل الغربي قلاعًا ومراكز لتزويد السفن وأخذ الرقيق، وهكذا؛ كانت البرتغال من أول مَنْ أسهم في جلب الرقيق إلى أوربا، وانتقلت بعد ذلك العدوى إلى بقية الدول الأوربية الأخرى.(٧)

في سنة ١٤٥٤م شرَعَ البابا "نيقولا الخامس" *Nicola5* سيطرة البرتغاليين على السواحل الإفريقية، مباركًا بذلك تجارة الرقيق التي لم تلبث إسبانيا أن بدأت تنافس عليها فتدخل البابا "الأسكندر السادس" *Alexandre6* لحسم الصراع برسم خط على الخريطة يوزع مناطق النفوذ بين القوتين، وبمباركة الكنيسة استقطبت تجارة الرقيق اهتمام الدول الأوربية الأخرى وتكونت شركات انجليزية وفرنسية للنخاسة ترعاها الحكومة.(٨) والبرتغاليون هم الذين بدأوا أول حلقة في سلسلة تجارة الرقيق بهذه الصورة الجديدة بين إفريقيا وأوربا حين قام "نينو تريستاو" البحار البرتغالي *NunoTristuo* في سنة ١٤٤١م بنقل أول شحنة من الرقيق الإفريقي إلى أوربا، وكان ذلك بناءً على إرشادات الأمير هنري وتشجيعه.(٩)

وقد اتسمت تجارة الرقيق بعد ذلك باتساع النطاق الكشوفات الجغرافية وتطورات أساليبها وأهدافها لمسايرة حركة النشاط الاستعماري الأوربي وأهدافه، حتى قيل، أنه في وقت قصير بعد ممارسة البرتغال لهذه التجارة أصبح عدد الرقيق المفقودين إلى مدينة لشبونة يزيد على عشر سكانها في ذلك الوقت.(١٠) ومنذ أوائل القرن السادس (سنة ١٥٢١م) كان الرقيق قد أخذ يشحن إلى أمريكا وإلى كوبا، وقد بلغ عدد العبيد الذين بيعوا لهذا الغرض في سوق لشبونة سنة ١٥٣٩م بـ ١٠,٠٠٠ عبد، ومن ثَمَّ لم تستطع الجهود البرتغالية العادية أن تسد الطلبات العادية المتزايدة للرقيق وبدا استغلال للأسلحة النارية للقنص.(١١)

لقد كان الرقيق أغلى سلعة اكتشفتها القوى الأوربية الاستعمارية في إفريقيا وأصبحت هذه السلعة الأساس الذي بُنيت عليه الدول الاستعمارية اقتصادها ورخاءها، وكان الأوربي لا يخاطر بالتوغل إلى الداخل، فاكتفى بالبقاء في المراكز الساحلية حتى يسلم له العبيد عن طريق الوسطاء، ثم يتم نقلهم إلى العالم الجديد، وقد تألفت شركات برتغالية بقصد الاتجار في الرقيق، وحصلت هذه الشركات على مراسم من البلاط الملكي البرتغالي باحتكار التجارة في مناطق محدودة من الساحل.(١٢) وقد بالغ البرتغاليون في ارتكاب الجرائم ضد السكان الأفارقة فاتخذوا محظيات إفريقية لإشباع شهواتهم البهيمية. وعذبوا الشيوخ والأطفال، وحتى رجال الدين المسيحي، شاركوا في ارتكاب هذه الجرائم ومارسوا الخطف والسلب واعتدوا على حرمات النساء باسم المسيحية.(١٣)

أما الانجليز فكانت سفنهم محملة بالرقيق تقوم برحلة مثلثة فتنقل المصنوعات الإنجليزية لغرب إفريقيا، حيث تستبدل بالرقيق وبلغ عدد ما وصل بين ستني (١٦٩٠ - ١٧٠٦م) إلى الممتلكات البريطانية من الرقيق ما يقارب من مليونين ونصف مليون عبد، وإذا عرفنا أن النظام الذي اتبع ترتب عليه أن ما يصل حيًا من هذه السلعة لا يصل إلى النصف، وإذ علمنا أن ما وصل المستعمرات الأوربية كلها في قرن واحد قُدر بـ٤٠ مليون إفريقي أدركنا أن القارة الإفريقية استنزفت ما يقرب من ٨٠ مليون من أبنائها، في هذا الميدان والبعض يقدر هذا العدد بما لا يقل عن مائة مليون.(١٤)

ولا ينسى التاريخ ما قام به الانجليز من جهود في تجارة الرقيق منذ القرن السادس عشر الميلادي، حيث كان القرصان الانجليزي "سرجون هوكنز" *SirjohnHaukins* أول بريطاني ينادى بجدوى تجارة الرقيق إلى تحقيق أرباحًا تفوق أرباح التجارة في الذهب أو العاج، وقد بدأ مغامراته في هذا المجال عندما رسي في سيراليون لأول مرة في ٨ مايو ١٥٠٢م وأسر ٤٠٠ إفريقي وباعهم للإسبان في العالم الجديد، وذلك مقابل ٢٥ جنيهًا للإفريقي، وتبعه في هذا المضمار عدد آخر من التجار الانجليز.(١٥) ومنذ سنة ١٦٤٠م بدأ الإنجليز يصدرون الرقيق إلى مستعمراتهم ومستعمرات الدول الأخرى في الأمريكيتين، ولما كانت هذه التجارة تدر أرباحًا طائلة فقد تحول عدد كبير من الإنجليز إلى تجار رقيق، حتى أن عدد الرقيق الذين حصل عليهم الانجليز في سنة ١٧٠٠م بلغ حوالي ١٥٠٠٠ عبد تم نقلهم عبر الأطلسي، وزاد هذا العدد إلى ٤٠,٠٠٠ في سنة ١٨٠٠م، وبلغ عدد السفن البريطانية التي تعمل بنقل العبيد حوالي ١٩٢ سفينة بالإضافة إلى أربعة "للنكستر"، وكانت سعة كل من هذه السفن ٥٠٠ عبد، وصارت منطقة سيراليون من أهم المناطق الرئيسة للرقيق في القارة الإفريقية، وكان تجار الرقيق يقيمون مخازن وحظائر لحفظ الرقيق المخطوفين، وكانت تلك المخازن تقام داخل قلاع وصل عددها في سنة ١٧٤١م حوالي ٤٠ قلعة، ولكل من البرتغاليين والدنماركيين أربع قلاع، أما الفرنسيون فكانت لهم ثلاث قلاع.(١٦)

وحين دخل الهولنديون في هذا المجال استطاعوا لفترة أن ينافسوا البرتغال، بل استطاعت سفنهم أن تستولي على المحطات البرتغالية وتحل محل البرتغال في هذا النشاط لفترة، وبعد أن استعادت البرتغال حصونها من الهولنديين نجح الهولنديين في إنشاء

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

محطات خاصة بهم، فكان لهم في الساحل الغربي للقارة حوالي عشر محطات ظلت تعمل في تجارة الرقيق حتى سنة ١٨٧٢م رغم صدور القرارات بمنع هذه التجارة.[١٧] وفي سنة ١٦٥٢م أقامت السويد محطة للاتجار بالرقيق، واتبعها بمحطة ثانية، وذلك قبل أن تنجح الدنمارك في سنة ١٦٥٧م في طردها من المحطتين، وأضافت الدنمارك خمس محطات أخرى استمرت قائمة حتى سنة ١٨٥٠م.

أما بروسيا فقد قامت بناء ثلاث محطات في سنة ١٦١٥م، لكنها تخلت عنها بعد أربعة عشرة عام من إنشائها. وكانت لفرنسا مراكز لتجارة الرقيق في جزر (جوارGorée) القريبة من دكار، وكانت تقوم بالنشاط التجاري في هذه الجزر وغيرها من المراكز التي اتخذها الفرنسيون لتجارة الرقيق في غرب إفريقيا.[١٨] وظهرت شركات عدة منها شركة السنغال الملكية للتجارة لإدارة هذه المراكز التجارية[١٩] التي ذاع صيتها في تجارة الرقيق، وحققت أرباحًا طائلة من هذه التجارة، كما وضعت الأساس لنفوذ فرنسا في السنغال الذي انتهى بتكوين ما عُرف بإفريقيا الغربية الفرنسية (*Afrique Occidental Francaise*).[٢٠]

وإذ كان أمر اصطياد العبيد في المراحل الأولى لم يكن يمثل صعوبة كبيرة بالنسبة للمستعمرين الأوربيين، وخاصةً أن هذه العملية كانت تقع بالقرب من المراكز التجارية لهم، فإن عملية التجارة في الرقيق قد أخذت مع بعض الوقت ومع زيادة الطلب على هذه السلعة للآدمية أبعادًا ضخمة، واستخدمت فيها إمكانيات كبيرة.[٢١] وكان عامل تفوق الأوربيين في الأسلحة يسمح لهم بعرض أنفسهم على الأفراد والمجتمعات الإفريقية بسهولة. ولم يكن في وسع السيوف والحراب والأسهم أن تقف في مدة طويلة في مواجهة الأسلحة النارية والبنادق، حتى وإن كانت جديدة العهد في ذلك الوقت. وكان هذا التفوق الأوربي يسمح للعناصر المستعمرة أنفسها باصطياد الأهالي الذين يدفعهم سوء حظهم إلى الاقتراب من محطاتهم. ثم أخذ الأوربي يستعين ببعض الأهالي التابعين له، أو الموالين له، ويستخدمهم في مساعدته في هذه العملية.[٢٢]

ولعل الحروب بين قبائل "الأشانتي" وقبائل "الفانتي" التي أشعلت نيرانها لفترة غير قصيرة في منطقة ساحل الذهب، والدور الذي لعبه الفرنسيون والانجليز في إذكاء نار هذه الصراع الدموي ليسر لهم الحصول على حاجاتهم من الرقيق، ويعطي مثلاً لهذا التطور الذي طرأ على وسائل ممارسة هذه التجارة نتيجة حاجة الأوربيين الماسة للرقيق الإفريقي.[٢٣] وفي هذا الصدد ولشدة الحاجة للرقيق الإفريقي، وقف وزير المستعمرات البريطانية "اللورد دار ثموث" متحديًا المنادين بالحد من هذه التجارة البشرية بقوله: "إننا لا نسمح بأي حال بعرقلة هذا النشاط الذي ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا".[٢٤]

وفي كيفية التعامل مع هذه السلعة من حيث التقدير النقدي، يقسم الذكور إلى أربعة أقسام في السعر من ٥٠ فرنك إلى غاية ٦ فرنك، وأما الإناث فيقسمون إلى ثلاثة أقسام للبيع من ١,٢٥٠ فرنك الى ٤,٥٠٠ فرنك،[٢٥] ويتم تحديد سعر العبيد حسب المكان المشترى منه العبد.[٢٦] ليس من السهل ضبط التعداد الحقيقي للعبيد الذين يتم نقلهم إلى ما وراء البحار، والسبب يرجع إلى نسبة الوفيات العالية وسطهم، فيتراوح معدل الوفيات من ٧ و٢٦% ، وطول مدة الرحلة التي تستغرق من ٥ إلى ٨ أسابيع، ناهيك عن الأمراض، والقتل، والرمي في عرض البحار في حالة عدم قدرة السفينة على الشحن.[٢٧]

أما عن الأماكن التي كان يصدر منها العبيد، فيعتبر الشريط الساحلي لغرب إفريقيا أهم المناطق لتوريد العبيد، ففي العقد التاسع من القرن الثامن عشر، عندما كانت تجارة العبيد عبر الأطلسي في ذروتها، كانت الصادرات السنوية من مختلف قطاعات الساحل على النحو الآتي:

- سنغامبيا:٢٢٠٠
- سيراليون:٢٠٠٠
- ساحل الذهب :١٠٠٠٠
- ساحل الرقيق ابنين:١٢٥٠٠
- دلتا النيجر إلى الكمرون:٢٢٠٠٠.

ومن هذه الأرقام يمكن أن نرى أن المنطقة الممتدة من ساحل الذهب إلى الكمرون كانت المسئولة عن٨٢% من جميع الرقيق الذين تم شحنهم من إفريقيا الغربية في ذلك الوقت.[٢٨]

ورغم تفاوت عدد الرقيق[٢٩] من قرن إلى قرن، فقد نقلت كل من بريطانيا والبرتغال نحو ثلث الشحنات، ونقلت هولندا نحو ١٨٪ وفرنسا نحو١٢٪ بينما كان نصيب الولايات المتحدة الأمريكية ٥٪ وكانت السيطرة للبرتغال على تجارة القرنين الخامس والسادس عشر، ولهولندا خلال ثلاثة أرباع القرن السابع عشر، ولبريطانيا في الفترة بين (١٦٧٢ - ١٨٠٨م) بعد ذلك كانت السيادة لسفن الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل وإسبانيا وفرنسا.[٣٠] أما أماكن وصول الرقيق الأفارقة الذين تم تصديرهم عبر المحيط خلال الفترة (١٤٥١ – ١٨٧٠م) فيمكن حصرها في المناطق التالية:

- العالم القديم (أوربا والجزر الإفريقية):١٧٥,٠٠٠.
- أمريكا الشمالية والوسطى: ٦٥١,٠٠٠.
- جزر الكاريبي: ٤٠٤٠,٠٠٠.
- أمريكا الجنوبية: ٤٧٠٠,٠٠٠.

ومن خلال هذه الأرقام يتأكد لنا مرة أخرى أن العالم الجديد نال حصة الأسد في استقبال الرقيق الأفارقة، ليتم توظيفهم في مزارع قصب السكر والمحاصيل الأخرى.[٣١]

إن صائدي العبيد كانوا يقيدون العبيد بالسلاسل بعضهم ببعض ويسيرون بهم مئات الأميال ويدمغونهم بالأختام المحماة مثل الماشية لتميزهم باسم المالك لهم، وينقلونهم عبر البحار في سفن العبيد المرعبة، يكدسونهم فيها في ظروف من الجوع والقسوة التي لا توصف، ثم يبيعونهم للسادة المستعمرين مثل الماشية.[٣٢] ويصف "ماك ماستر" الصور المزعجة لسفينة العبيد قائلاً: "عندما تغرب

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية

الشمس ينزل الجميع إلى الأسفل وكانت المساحة المتاحة لكل واحد يرقد فيها كانت ستة أقدام طولاً وستة عشرة بوصة عرضًا، وكانوا ينامون على الأرض، وكان السوط يستخدم لإجبارهم على الالتصاق بعضهم البعض في أضيق المساحة، وكان من المستحيل لأي منهم أن يتقلب ذات اليمين أو ذات الشمال إلا يعاني كل الصف من الفوضى والاضطراب. ولكن مأساة الليل لا تساوي شيئًا بالنسبة لمآسي اليوم العاصف، لأنهم كانوا يحيطون المراكب بالأقمشة السميكة فتمنع الهواء وتصير الأرض مبللة غارقة بالعرق، وكانت صيحات الألم ترتفع من أفواه الزنوج وتسمع في أعلى السفينة، وكان من الأمور العادية أن يقذف بأجساد الموتى في البحر، ولم يكن من النادر أن تبلغ الوفيات على ظهر السفينة ما يصل إلى ثلث العبيد فيها. وأحيانًا ما كان قراصنة السفينة بسبب خشيتهم من نقص المياه أو بسبب إحساسهم بالخطر من الأسر، كانوا يقذفون بالحمولة البشرية الحية من أعلى ظهرها لتأكلها أسماك القرش، وعلى الرغم من كل هذه الخسائر فإن أرباح تجارة العبيد كانت تصل إلى الألف في المائة في الرحلة الواحدة".(٣٣)

إن الانحطاط الآدمي في سعيه وراء الربح لم يغرق إلى هذه الأعماق المتدنية مثل ما حدث في تجارة الرقيق.(٣٤) وقد ذكر "بلاك" *W.o.Blake* في كتابه "تاريخ العبودية" *History of Slavry* الصادر سنة ١٨٥٧م، أنه في شأن موت العبيد في الطريق فإن "مستر فالكون بريدج" *Falkon Bridge* ذكر أنه في ثلاث رحلات اشترى ١١٠٠ عبد وفقد منهم ١٩١، وأن "تروتر" Trotter ذكر أنه في رحلة واحدة كان هناك ٦٠٠٠ عبد وفقد ٧٠ منهم، وذكر "ميلر" *Miller* أنه في رحلة واحدة كان هناك ٤٩٠ وفقد ١٨٠، و"إليسون" *Elison* ذكر أنه في ثلاث رحلات اشترى ٨٥٠ وفقد ٣٦٥، و"مورلي" Morley ذكر أنه في أربع رحلات اشترى حوالي ١٣٢٥ وفقد ٣١٣، و"كلاكتون" *Claxton* ذكر أنه في رحلتين كان هناك ٢٥٠ وفقد ١٣٢، وكل هؤلاء كانوا من تجار العبيد الانجليز.(٣٥)

وقد وصلت تجارة الإنجليز مثلاً في الرقيق الإفريقي إلى أعلى ذروة لها قبيل حرب الاستقلال الأمريكية، وتعاونت في هذه التجارة موانئ "لندن، وبريستول، ولانكستر". وبلغ عدد السفن الانجليزية التي تعمل في ما يقارب من مئاتي سفينة وتقرب حمولتها من ٤٨ ألف عبد، وقد تفوق ميناء ليفربول على غيره وقام في سنة ١٧٨٧م بنقل نفس العدد المصدر إلى العالم الجديد، وزادت هذه النسبة بعد ذلك حتى أصبحت سفن هذا الميناء وحده تنقل ما يقرب من ستة أسباع مجموع العبيد.(٣٦)

وهناك قصص كثيرة يصعب ذكرها وحصرها عن تلك المعاناة والمعاملة القاسية التي كان يواجها أبناء القارة، وسنأخذ مثالاً آخر لتلك الأعمال الوحشية لسفينة انجليزية تدعى (زونج Zong) أبحرت سنة١٧٨١م في رحلتها عبر الأطلنطي وهي محملة بكامل حمولتها من العبيد، وعندما أكتشف الربان أن مياه الشرب غير كافية لهذا العدد الذي تحمله السفينة وخوفًا من هلاك ركابها فقد تم إلقاء حوالي ١٣٢ عبدًا في عرض البحر حتى يتمكن من استرداد قيمة الخسارة من شركة التأمين، وبالفعل تم تعويض السفينة بواقع ٣٢ جنيهًا إسترلينيًا عن كل عبد، وذلك على اعتبار أن هذا الرقيق عبارة عن ممتلكات أو متاع لولا التضحية به لفقدت كل الشحنة، وأيدت المحاكم الأمريكية ذلك، وأقرت أنه لا تنطبق على أصحاب السفينة أية جريمة من جرائم القتل.(٣٧)

والمستفيدون الحقيقيون من هذه التجارة هم:

- الشركات الرأسمالية الأوربية.
- القوى الطبقة المسيطرة داخل أوربا والولايات المتحدة الأمريكية.
- الإرساليات التبشيرية المسيحية.
- أصحاب المزارع والمصانع والمناجم من الأوربيين والأمريكيين.
- زعماء القبائل من الأفارقة.
- صيادو الزنوج الأفارقة (الجلابة) أو (قناص العبيد).(٣٨)

وفي ختام هذه الدراسة المتواضعة يتحتم علينا أن نتطرق إلى النتائج المترتبة عن هذه التجارة على شعوب المنطقة الإفريقية في مختلف المجالات الحياتية وهي على النحو الآتي:

- حرمان القارة الإفريقية من بعض الكفاءات الثقافية النادرة التي كانت تمتلكها آنذاك، حيث كان من بين العبيد المنقولين إلى العالم الجيد وأوربا طائفة من المسلمين الذين كانوا يتقنون اللغة العربية ويقرؤونها، وقد تحدث "ولبرفورس" *Wilbelforce* عن شحنة من الزنوج تشمل ١٣٠ فردًا من بينهم ٢٥ يكتبون اللغة العربية، ويشهد لذلك أن مكتبة هارفارد تتضمن ٥ أو٦ مخطوطات عربية لعبيد أفارقة.(٣٩)
- أجبرت غرب إفريقيا على تصدير أغلى مواردها الخام (الأيادي العاملة)، حيث نقل ملايين الفلاحين والحرفيين للعمل في المزارع والمناجم الأمريكية، وحققوا بذلك أرباحًا وثروات ضخمة، ورفاهية لشعوب أوربا وأمريكا.
- نجم عن هذه التجارة استيراد كميات ضخمة من الأسلحة والبارود، مما أحدث ثورة في مجال القنص والقبض على الرقيق، وعلى هذا فإن الطلب على الأسرى من الرقيق سار جنبًا إلى جنب مع الطلب على الأسلحة النارية، وقد ساعد هذا الازدواج على انتشار الحروب والصراع بين القبائل الإفريقية، فأحدث دمارًا في الإنتاج، وفتكًا بالقوى البشرية، وتشتيتًا للسكان، كما أثار الفزع والخوف في نفوس الناس، وعندما بدأ التكالب الاستعماري الأوربي على القارة الإفريقية كان الانقسام والتشتت طابع الجماعات البشرية، وهذا ما سهل على الغزاة مهمتهم في السيطرة على أجزاء القارة الإفريقية المختلفة.(٤٠)

دورية إلكترونية .مُحكَّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

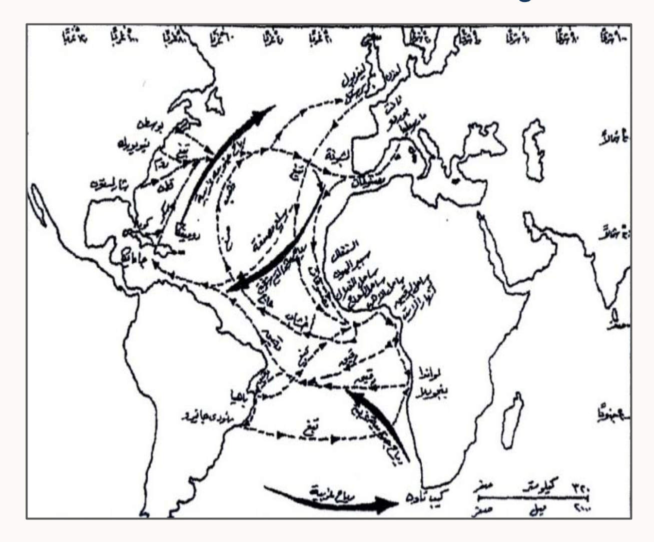
- أصيبت المجتمعات الإفريقية من جراء هذه العمليات الاستنزاف والحروب المستمرة لهزات عنيفة حطمت العلاقات التي كانت قائمة بين الأفراد والمجتمع، وخلخلت النظام القبلي بما كان يفرضه من علاقات بين الأفراد.
- كانت هذه العمليات وبالاً على الحضارات الإفريقية، وكما ذكر الكاتب الأمريكي الزنجي "وليم تشانسلور" : "هل بعد كل الذي عانته القارة نتيجة تجارة الرقيق لازلنا نتساءل عن السبب في تأخر الأفارقة الحضاري.(٤١)
- سوء معاملة الرقيق أثناء نقلهم إلى أوربا والعالم الجديد، فكان هؤلاء يعاملون معاملة الحيوانات، فكانوا يقيدون بالسلاسل الحديدية ويحشرون في المراكب، وكثيرًا منهم توفي بسب الأمراض والاختناقات، وعدم التغذية، وكانت جثثهم ترمى في البحر وهم في طريقهم إلى الأراضي الجديدة. وقد امتلأت كتب البحارة بوصف هذه الرحلات الفظيعة أمثال كتابات "دنهام"، "وبارث"، "وريتشارد".(٤٢)
- نهب ثروات المنطقة الاقتصادية والقضاء على أي مظهر من مظاهر النشاط الاقتصادي فيها.(٤٣)

خاتِمَةٌ

ولا يسعنا في نهاية هذا المقال إلا الاستشهاد بالباحث الانجليزي "دافيدسن" حينما كتب عن تجارة الرقيق التي قام بها الأوربيون فيقول: "لم تكن تجارة الغرب للزنوج إلا نكبة خفيفة على أطراف القارة وفي داخلها، ولكنها اتخذت معنى جديدًا حين شرعت السفن الأوربية تنقل آلاف الشباب من الداخل والساحل، وتدمي الحياة في القارة، والنخاسة أصبحت على يد الأوربيين تجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاح أوربا، فقضى على ما يقرب من ثلث أهلها، بل أسوأ، لأن النتائج الاجتماعية كانت أشد قسوة من الموت، فالوباء الذي تعرض له الأوربيون انقضى، وانقضت معه أثاره، ولكن القهر الذي تعرض له الإفريقيون والذي عاشوه، لم تكن لتنقضي أثاره، ولم يجتاح الموت الأسود أوربا إلا عددًا من السنوات، بينما استمرت تجارة الرقيق تحصد السكان حصدًا، وتهدد معنويات مَنْ بقى أكثر من أربعة قرون.(٤٤)

والخلاصة؛ أن تجارة الرقيق ورواجها من منطقة غرب إفريقيا عبر الأطلنطي قد أدت إلى عملية استغلال منظم لثروات المنطقة لصالح القوى الأوربية، والتي تمثلت في استغلال الثروة البشرية، وتبع ذلك عمليات استغلال مستمرة ومنتظمة للثروات والمواد الخام الأخرى في المنطقة بعد استعمارها وإعادة تشكيل أوضاعها الاقتصادية بما يتلاءم مع الظروف والأوضاع الجديدة، وذلك من أجل نهب أكبر قدر من هذه الثروات بأدنى التكاليف، ولقد كان لهذا النهب أثره حتى بعد استقلال دول غرب إفريقية، التي لا تزال تعاني إلى اليوم من آثار هذه التجارة على مختلف الأصعدة.(٤٥)

الملاحق



خريطة توضح تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي خلال القرن الثامن عشر

المصدر: هوبكنز.ر.ج: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، ص ٢٠٠.

الهَوامِشُ:

(١) جمال زكريا: **العرب والرق في إفريقيا**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٩م، ص١٩.

(٢) لقد وجد الاسترقاق منذ وجد الإنسان على الأرض، فكان الإنسان القوي يستعبد الإنسان الضعيف، بل ويتخذه رقيقًا يخدمه ويسخره ويملكه ويبيعه ويشتريه. وعندما انتشرت الحروب عم الاسترقاق جميع أنحاء العالم وصار المنتصرون يبقون على حياة الأسرى لاستخدامهم في كافة الأعمال المختلفة، وبذلك صار الرق نظامًا مسلمًا به في العالم._انظر: دي.فيج.جي: **تاريخ غرب إفريقيا**، ترجمة، يوسف نصر، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م. ص١٦٣.

(٣) خطاب صكار العاني: **دور حركات الاستكشاف البحري والحركة التجارية الأوربية في تجارة الرقيق**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٩م، ص ٩٠.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية   ISSN: 2090 – 0449

(٤) إن اصطلاح غرب إفريقيا، والسودان الغربي كلاهما يدل على ما نسميه بمنطقة غرب إفريقيا التي تمتد في القارة من بحيرة تشاد في الشرق حتى ساحل المحيط الأطلنطي في الغرب، وتقع عند خط عرض ١٧,٩ شمال خط الاستواء على وجه التقريب، وهي جزء من السودان الغربي، والأوسط، ويمتد السودان الغربي حسب هذا المفهوم من ساحل السنغال حتى حدود نيجيريا الشمالية، ونقطة ارتكازه هي حوض السنغال، وحوض نهر النيجر الأعلى والأوسط. أي هي أن المنطقة التي تطل غربًا وجنوبًا على المحيط الأطلسي، وتحدها الصحراء الكبرى شمالاً، ومن الشرق تتاخم بحيرة تشاد. انظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، وشوقي الجمل: **دراسات في تاريخ غرب إفريقيا**، مكتبة الإسكندرية، مصر،١٩٨٩م، ص٥. والهادي المبروك الدالي: **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، ط١، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩م، ص ١٩.

(٥) الخليل النحوي: **إفريقيا المسلمة الهوية الضائعة**، ط١، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٩٣م، ص٨٦.

(٦) في سنة ١٤٧١م حط البرتغاليون على ساحل ما يسمى اليوم بدولة غانا والجزر المقابلة له فوجدوا الذهب بكميات هائلة، فاحتكروا تجارته من خلال إنشاء قلعة ضخمة في مدينة "المينا" Elmina وأطلقوا على تلك المنطقة اسم ساحل الذهب. انظر: محمد فاضل وسعيد إبراهيم: **المسلمون في غرب إفريقيا**، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٧م. ص ١٥٥-١٥٦.

(٧) فيصل محمد موسى: **موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، منشورات الجامعة المفتوحة، ليبيا، ١٩٩٧م، ص٧٨-٧٩. كان البرتغاليون حينما بلغت البرتغال أوج سلطانها وسيادتها البحرية، أول مَنْ قام بعمل الرحلات البحرية الاستكشافية لشواطئ إفريقية الغربية والجنوبية، وكانت تحدوهم في ذلك رغبتان: الأولى؛ محاولة اكتشاف طريق بحري دائري إلى الهند، والثانية؛ محاولة الحصول على الذهب، حيث كانت الأساطير تتركز حول وجود مناجمه الغنية في غرب إفريقية. انظر: محمد عبد الله عنان: **اكتشاف إفريقيا ومأساة تقسيمها**، الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي، ج١، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ١٩٩٥م، ص٢٦٢.

(٨) الخليل النحوي: المرجع السابق، ص ٨٧.

(٩) شوقي عطا الله الجمل: **دور المجتمع الغربي في تطور تجارة الرقيق**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٩م، ص ٣٧.

(١٠) المرجع نفسه.

(١١) محمد رزوق: **دراسات في تاريخ المغرب**، ط١، إفريقيا الشرق،١٩٩١م، ص٨.

(١٢) المرجع نفسه، ص٩. كانت وسيلة البرتغاليين في تجارة الرقيق أن تتكون الشركة التي عمادها أحد الأشراف الذي يستطيع السفر أولاً إلى الأملاك الإسبانية في العالم الجديد، أو يستطيع الاتصال بأحد الأشراف الإسبان في إسبانيا، حيث يحصل منه على عقد بتوريد عدد من الرقيق، حتى إذا نجح في ذلك أسرع إلى البلاط البرتغالي ليحصل على مرسوم باحتكار التجارة في منطقة ما من الساحل الإفريقي. وإذا ما انتهى الأمر معه إلى ما يريد أسرع بإرسال عدد من السفن إلى المنطقة التي أرادها، فيبدأ ببناء الحصن ويستخدم عددًا من العاطلين وقطاع الطريق والمجرمين البرتغاليين ويتعاقد معهم على أن يعملوا هناك كحامية للحصن. انظر: رياض زاهر، **استعمار إفريقيا**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٦٥م، ص ٦٤.

(١٣) يحي بوعزيز: **الاستعمار الأوربي الحديث في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص٦٧.

(١٤) محمد رزوق: المرجع السابق، ص٩.

(١٥) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، وشوقي الجمل: **دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر**، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٧.

(١٦) المرجع نفسه.

(١٧) شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص٤٢.

(١٨) المرجع نفسه، ص٤٣. يرجع إنشاء المراكز التجارية الفرنسية إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد تعرضت هذه المراكز للمضايقات من جانب البريطانيين، بسبب تزعم بريطانيا لحركة مقاومة تجارة الرقيق، ومحاصرة أسطولها لشواطئ الإفريقية في بعض الأحيان لمنع هذه التجارة. انظر: حلمي محروس: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ج١، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠٤م، ص٢٧٠.

(١٩) المرجع نفسه.

(٢٠) شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص٤٣.

(٢١) جلال يحي: **تاريخ إفريقيا الحديث**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ص ١٨١.

(٢٢) المرجع نفسه.

(٢٣) شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص٤٣.

(٢٤) المرجع نفسه، ص٤٤.

(25) ***un Ancien Diplomate: L'esclavage en Afrique***, letouzey et Ane Editeur,Paris.1890.P8.

(26) Gyut, yves: ***le commerct et le commerç***, octave Doin et fils, Paris.1909.P22. *See*: Henrri, Feuilleret: ***Mungo Park sa Vie et Ses Voyage***, edition. AlvredMame et Fils.1880.PP122-123.

(27) Robert, Cornevin: ***Histoire de L'Afrique***, tome 2,Paris.1966.P367.

(٢٨) هوبكنز.ر.ج: **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية**، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر،١٩٩٨م، ص٢٠٥.

(٢٩) يرى بعض الباحثين أن عدد الزنوج الذين اقتنصوا أو أخرجوا من ديارهم لا يقل عن مائة مليون لم يصل منهم سالمًا إلى أمريكا ويصبح صالحًا للعمل في مزارعها أكثر من ٨,٥ مليون، باعتبار أن من كل عشرة زنوج يموت تسعة في البر من جراء الغزوات وفي البحر، وهم مكدسون في قاع السفن وعند وصولهم بعد ما لاقوا من العذاب ألوانًا. ويؤكد المؤرخ الزنجي "دوبوا " أن عدد الزنوج الذين وقعوا في أسر القناصة خلال هذه القرون بما لا يقل عن مائة مليون إفريقي. انظر: صبري أبو المجد: **ثورة إفريقيا**، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٦٠م، ص ٤٣.

(٣٠) محمد عبد الغني سعودي: **قضايا إفريقيا**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،١٩٨٠م، ص ٨٠-٨١.

(٣١) هوبكنز.ر.ج: المرجع السابق، ص٢٠٦.

(٣٢) عايدة العزب موسى: **تجارة العبيد في إفريقيا**، ط١، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م، ص٣٨.

(٣٣) المرجع نفسه، ص٣٩.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(٣٥) المرجع نفسه، ص٣٩.

(٣٦) جلال يحيى: المرجع السابق، ص١٨٩.

(٣٧) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، وشوقي الجمل: المرجع السابق، ص ١٨- ١٩.

(٣٨) مسعود ظاهر: **موقف الرأسمالية من الرق دراسة في المنهج**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٩م، ص١٤٧- ١٤٨.

(٣٩) الخليل النحوي: المرجع السابق، ص ٨٨ - ٨٩.

(٤٠) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، وشوقي الجمل: المرجع السابق، ص٣١ - ٣٢.

(٤١) شوقي عطا الله الجمل: المرجع السابق، ص٥١. ودنيس بلوم: **الحضارات الإفريقية**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٤م، ص١٤٦.

(٤٢) فيصل محمد موسى: المرجع السابق، ص ٨٧.

(٤٣) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، وشوقي الجمل: المرجع السابق، ص٣٤.

(٤٤) محمد عبد الغني سعودي: المرجع السابق، ص٨٣ - ٨٤.

(٤٥) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، وشوقي الجمل: المرجع السابق، ص٣٥.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

